اللغة والشعر

بين ناصر وخاذل

﴿ اللغة ﴾ المنشئون في اللغة العربية فريقان اولهما تضلع من اللغة واستطلع خفاياها فبلغ منها مبلغاً جليلاً والثاني قصرَ على غيرها جهدهُ فلم يدرك منها الاَّ ذَرْوًا وفاتهُ معرفة اصولها ودقائقها ومصادرها وموارِدها كانها لم تكن لغة قومهِ وتراث اجدادهِ. ولكلا الفريقين في هذه اللغة آراء ومذاهب

اما الفريق الاول فيضنُّ باللغة ان تشوبها شائبة من لغو او خطل ويربأُ بها ان يتنازع اساليبها انحطاط وتخف ويؤلمهُ جدَّ الايلام ان يرى قواعدها مختلة وتراكيبها قلقة والفاظها مبتذلة مخافةَ ان يأتي يوم لا تبقى للفصحى فيهِ مزية على العامية . واللغة الفصحى كما هو معلوم عنوان القومية العربية وطراز ثوبها في الجاهلية والاسلام بها أُنزل الكتاب الكريم وتهجرت بنابيع الفصاحة على السنة الفحول من شعراء العرب والمصاقع من خطبائهم وفاض معين البلاغة من اقلام مترسليهم وكتابهم وقيدت اوابد اخبارهم وجمع شتيت مفاخرهم وتليت آيات حكمائهم ودبجت صحائف علمائهم وحفظت جلائل آثارهم فمن يحرص عليها فانما يحرص على تراث قديم يتصل بمجد اجدادهِ ويذكرهُ محامدهم ومآثرهم ويحدثهُ بمناقبهم ومكارمهم

ومن مذاهب هذا الفريق ان يكون اهل اللغة متبعين لا مبتدعين فيطبع محدثوهم على غرار قدمائهم من غير زيادة ولا نقصان . على ان منهُ فئة ذات شأن لا ترى بأساً في لإغفال ما لا طائل تحتهُ من الشواذّ والمذاهب الآخذ بعضها برقاب بعض وفي ان يكتفي باهمّ القواعد واصح المذاهب بشرط الاَّ تفوت المتعلم والمنشئ معرفة دقائق اللغة واساليبها واسرار بلاغتها ومن شاء بعد ذلك التضلع منها واستبطان دخائلها حتى يصح من جهابذتها فامامهُ من المطولات والمعاجم ما يحمل حاجتهُ على حبل الذراع

وترى هذه الفئة ان في مقدمة ما تجب العناية بهِ مراعاة الاسلوب العربي في الانشاء لانَّ لكل لغةٍ اسلوباً تمتاز بهِ ومهما تكن المفردات فصيحة والجمل بليغة ولم يكن لها اسلوبها العربي فان ذلك مقللٌ من طلاوتها خلق من ديباجتها . انظر الى الكثير من الجرائد والمجلات العربية ترَ فيها سطوراً عربية الحروف ولكنها افرنجية الاسلوب والمعنى وما هكذا يكون الانشاء في لغة الضاد . وترى ايضاً انهُ لا بأس في ذكر الاشياء المحدثة

باسمائها الاعجمية اذا كانت هذه الاسماء سهلة اللفظ مطابقة للاوزان العربية فتجري مجرى غيرها من الاسماء الاعجمية المعربة منذ الزمن القديم وهي كثيرة

***

اما الفريق الثاني فقصارارُ ان يستبدل بالفصحى لغة جديدة تكاد العامية تكون ابتن منها اسلوباً واصحّ تعبيراً لا يتقيد المنشئ فيها بقاعدة ولا يبالي خطأً ولا يضطر الى اتباع اللغويين والنحويين والبيانيين في مراعاة الاصول واستقراء الدقائق ووضع الكلمات في المواضع اللائقة بها بل يكتب ما شاء كما يشاء و يبتدع ما استطاع الابتداع - ومن يقرأ ما يكتبهُ هذا الفريق في طائفة من المجلات والجرائد يعلم مبلغهُ من الجهل بقواعد اللغة واساليبها و يجد من مبتذل اللفظ وتخليطه ما لا يجري الا على السنة العامة . ولا غرو ان يكون ذلك شأنهُ ما دامت اللغة في عرفهِ عبارة عن تأدية المراد باللفظ من غير ما نظر الى الفصاحة وصحة القواعد والاستعمال

وماذا ترجو من الذي لا يدري الفرق بين (رُكن) وهو الجانب الاقوى من الشيء و(رَكن) وهو الجرذ و بين (أمارة) وهي العلامة و(إمارة) وهي من أَمَّرَ يأمرُ إمارةً اي صار اميراً فيفتح الراء اذا قرأ حيث يجب ضمها و يضمها حيث يجب فتحها و يكسر الهمزة حيث يجب الفتح ويفتحها حيث يجب الكسر وهو يعتقد انهُ لم يخطئ مرمى السداد

ثم ماذا ترجو ممن يقول (سوف لا يكون كذا) و(قد لا يكون كذا) جاهلاً ان سوف وقد يجب ان تباشرا الفعل وان (لن) تستعمل لنفي الفعل المراد به المستقبل البعيد فيقال (لن يكون كذا) وممن يقول (لا افعل قط) مع ان قط انما تدخل على الماضي الى غير ذلك من المغالط والاوهام

على انني لست أحيل بالملام على هذا الفريق فان معظم افرادهِ حذقوا بعض اللغات الاوربية وتبحروا في قواعدها وآدابها ولم يأخذوا من لغة اجدادهم الاَّ طرفاً من جزئياتها ثم لما حاولوا الانشاء فيها ثبت لهم قصورهم وانحطاطهم عن طبقة ذوي الاجادة والتدقيق من المنشئين وتخلفهم عن ارباب الفصاحة واستنكفوا ان يعترفوا بعجزهم وضعف ملكتهم العربية فقاموا يرمون اللغة الفصحى بالقوارص واللوادغ و يثبون على جبابذتها و بلغائها حرصهم على كنوزها الثمينة وضنهم بدقائقها واصولها واستمساكهم بقواعدها واساليبها زاعمين ان حالة هذا العصر تقتضي الغاء الكثير من قواعد اللغة ومصطلحاتها والاكتفاء من ذلك باليسير ليسهل على الطلبة تحصيلها وعلى المنشئين معاناة الانشاء فيها

ووالله حانة صادق لو كان هذا الفريق من النبحر في العربية وإحكام اساليبها بحيث يستطيع ان يجاري عرائس البلاغة في اثواب الفصاحة وان يكون بمنجاةٍ من سهام الناقدين المتعصبين لكان شأنهُ ان يحرص على اللغة حرص البخيل على مالهِ ويغار عليها غيرةَ العزيز على ذمارهِ ويرمي من يحاول امتهانها بقاصمة الظهر ولكنهُ جهلها الاَّ بعض جزئياتها كما تقدم — والناس اعداء ما جهلوا — فشنَّ عليها هذه الغارة الشعواء قصدَ ان يخفي تأخرهُ في مضمارها وعجزهُ عن استجلاء اسرارها والوقوف على غوامضها واغراضها. والبرهان على ذلك اوضح من فلق الصباح وهو اني لم اسمع قط ولا سمع غيري ان واحداً ممن ملكوا اعنة العربية في كل زمان ومكان حاول العبث باصولها وقواعدها او دعا الناس الى ان يستبدلوا بفصيحها عاميها او اقام العراوس في تهجين معظماتها او نعى على الكتاب استعمال اللفظ الجزل والاسلوب الفخم ومراعاة القواعد والاصول بل فعل عكس ذلك وآثر ان يكسر قلمهُ وتشلَّ يده على ان يكتب مقالاً يفشو فيهِ اللحن ويشين الفاظهُ الابتذال. وانما يفعل ذلك من اقتصتهُ اللغة عن ابوابها فلم يدرِ ما وراء تلك الابواب من ذخائر ونفائس فكان اقصى امانيهِ ان تصبح الفصحى اثراً بعد عين حتى لا تبقى عليهِ لكاتب مزيةٌ ظاهرة متجاهلاً ان في ذلك ما يمحو عنوان القومية ويهدم اركانها

من مذاهب هذا الفريق في اللغة ألاَّ يستعمل من المفردات الاَّ ما يفهمهُ كل مخلوق .. وان كان اعجميًّا او غير فصيح فهم يوجبون ان يقال (اوشه) بدلاً من (مخدع او حجرة) و (صالون) بدلاً من (بهو) و (اوتيل) بدلاً من (فندق) و (حرذون) بدلاً من (ضبّ) و(برغشة) بدلاً من (بعوضة) و (سكرتير) بدلاً من (ناموس) و (مكوك) بدلاً من (وشيع) و(قرقذان) بدلاً من (سنجاب) و (قرقور) بدلاً من (حَمَل) و (اختيار) بدلاً من (شيخ) وغير ذلك مما لو اردت الاحاطة بهِ لامتدَّ بي نفس الكلام. أليست هذه اللغة هي العامية بعينها ؟ ؟ ؟

ومن مذاهبهِ ان تجعل الافعال الثلاثية الصحيحة على وزن واحد فيكون علمَ وقتلَ ونفدَ وأخذَ وغيرها على وزن ضربَ وتصح حركة العين في جميع الافعال المضارعة واحدة

ومنها تعميم الالوان فلا يقال في تقسيم البياض (رجل ازهر ، فرس اشهب ، حمار اقمر ، كبش املح ، ظبي آدم) بل يقال رجل ابيض وفرس ابيض وحمار ابيض وكبش ابيض وظبي ابيض كما يقال ثوب ابيض وقس على ذلك سائر الالوان

ومنها الغاء موانع الصرف فلا يبقى في العربية اسم غير منصرف وهذا الرأي من

المضحكات فان النحاة انما منعوا من تصرف الاسماء الثقيلة قصداً تخفيفها فما هي حجة اصحابنا في رأيهم؟ أتُراهم يؤثرون التثقيل على التخفيف ويعتزمون انهم يحاولون (اصلاح) اللغة تخفيفاً لاثقالها عن انفسهم وعن طلاَّبها ؟ ...

هذا بعض ما وعته المذاكرة من مذاهبهم وآرائهم في اللغة اكتفي به لئلاَّ يملَّ القارئ

***

﴿ الشعر ﴾ للشعر العربي على غيره من المزايا الظاهرة ما لا ينكره منصف ولو لم يكن له الاَّ فخامة الاسلوب وعذوبة الرنة فضلاً عن رشاقة المعنى وحسن الديباجة لكفى. وقد اعترف بذلك نفر من علماء الفرنجة المستشرقين منهم الحكيم الجليل الطبيب الذكر كرنيليوس فانديك الاميركي الذي اولع بالعربية فتعلمها والَّف فيها مؤلفات ذات قيمة وكان كما اخبرني ثقة من معاصريه يهتزُّ طرباً اذا سمع شعراً عربياً بليغاً ويقول لو استطعت الاجادة في الشعر لنظمته

يرى الفريق الغيور على اللغة وادبها المتضلع منها انهُ لا يصحُّ ان يسمى شعراً الاَّ ما كان صحيح الوزن جزل الالفاظ رائق الاسلوب متين القوافي سالماً من العيوب لاابتذال فيه ولا تكلف ولا تمثُّل ولا تعسُّف تجلى النكت الرائقة في ابياته وتكاد الطلاوة تندفق من صدوره واعجازه وقد قلت في وصفه من قصيدة

ما الشعر الاَّ قوافٍ راض جامحها ... غمرُ البديهة فحل راسخٌ قدما
صانت جزالةُ مبناها معانيها ... من ان يلمَّ بها فهمٌ شكا وسما
اذا الحماسة اذكت بينها ضرماً ... أسال تشبيبها من حوله منما
شواردٌ عبقرياتٌ لها أرجٌ ... مازال يلطف حتى صاحبَ النسما
كأنها قطعُ الروض الذي سكبتْ ... غرُّ السحاب على ازهاره ديما
حتى تلينَ حسيت الوحي مستمعاً ... والسحرَ منجلياً والماء منسجما
تمرُّ الفاظها بين الشفاه كما ... يمرُّ صافي الطلا بالمسك قد ختما
يهتزُّ سامعها ما أنشدت طرباً ... كما ترنَّحَ صبٌّ يسمع النغما
يكاد ينشدهنَّ الفجرُ مختلساً ... لنفسه من اقاحيِّ الرياض فما

وانَّ ما كان غير ذلك هو (بالمعنَّى) اشبه والى (القرَّادي) اقرب بل هو الثقل منها على الاسماع وقراً واكثر في الذوق تفاهة

واما الفريق الثاني وهو لسوء حظ اللغة والشعر — اوفر من الاول عدداً واكثر

اتباعاً لغير الشعر عندهُ ما كان سوقيَّ الالفاظ سخيف التراكيب مبتذل الاسلوب. وحجة هذا الفريق في ذلك أنَّ الشعر الذي ينسج على هذا المنوال يكون خلواً من الغموض والابهام فيفهمهُ كل من يسمعهُ من غير ان يمنت فكرهُ ويرويهِ — كما يروي اشعار بني هلال — من غير ان يكدّ ذهنهُ

على ان هذه الحجة اوهى من نسج العناكب وحقيقة الامر أنَّ ضعف ملكتهِ العربية وعجزهُ عن استقراء دقائق اللغة والادب واستكمال ادوات الشعر حالا بينهُ وبين ان ينظمهُ جزلاً فصيحاً متيناً فلما قعد بهِ طبعهُ عن مجاراة فرسانهِ في الحلبة نظمهُ رثَّ الالفاظ سخيف التعبير زاعماً ان الشعر العصريَّ كذلك يجب ان يكون ليصبح اعلق بالافهام وادعى الى استحسان سواد الناس فكان شأن هذا الفريق في الشعر شأنهُ في اللغة

وتجد هؤلاء الا اقلهم يحاولون اثبات زعمهم بما ينظمونهُ وينثرونهُ تهجيناً للشعراء الذين يتخيرون لمنظومهم فصيح الالفاظ وجزلها ويأبون ان يستعملوا سفساف الكلام ونفايتهُ ويتابعهم على رأيهم كل من لا يفطن للحن او مغزى ولا يفهم شيئاً من اسرار الفصاحة والبلاغة قائلاً إنَّ الاسلوب الفخم واللفظ الرصين انما كانا يصلحان لوصف الناقة والجواد في زمن الجاهلية وصدر الاسلام ولا يصلحان لوصف القطار والسيارة والكهرباء في القرن العشرين كأن هذه الاشياء لا يجوز ان توصف بكلام فصيح سلم من معرَّة الخطإ والابتذال . . . انشدهم قول البحتري في وصف دمشق

اما دمشق فقد ابدت محاسنها وقد وفى لك مطريها بما وعدا
فان اردت ملأت العين من بلدٍ مستحسن وزمانٍ يشبهُ البلدا
يمسي السحاب على اجبالها فرقاً ويصبح النبت في صحرائها بددا
فلست تنظر الاَّ واكفاً خضلاً او يانعاً خضراً او طائراً غردا
كأنما القيظ ولّى بعد مجيأتهِ او الربيع دنا من بعد ما بعدا

فتراهم يقولون شعر قديم ينبو عنهُ السمع وفيهِ الفاظ غريبة معجمة مثل واكف وخضل ويانع وخضر وانما يطربنا الشعر المفهوم المنسجم كقول شاعر عصريّ يصف حديقة . . .

رأيت حديقةً فاقت جمالا كما قد فاق صاحبها كمالا
ازاهرها الجميلة قد تلالت كبدرٍ في سماء بدا فلالا
وفيها الشمش اللوزيّ فاقت عذوبة طعمهِ قطراً فسالا
وفيها التين والرمان جادا بثمارٍ ابت عيناً ودالا

ومن دواعي الاسف أنّ هذا (الشعر العصري) لا يخلو منهُ كثير من الجرائد والمجلات وان معظم قارئيهِ يستحسنونهُ و يترنحون لدى سماعهِ طرباً ولا يبالون ان يفضلوه على شعر البحتري وابي تمام وابن هانئ والمتنبي ومن استنّ بسنة هؤلاء من شعراء العصر ، فهم اعداء كل فصاحة وجزالة واسلوب متين

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ويُنكر الفم طعم الماء من سقم

يقول الذين يسمون انفسهم ويسميهم اتباعهم (شعراء عصريين) ان العبرة في الشعر بمعناهُ لا بلفظهِ فاذا تضمن سفساف اللفظ معنًى جميلاً فذلك هو الشعر المرقص المطرب وان الشاعر النابغة المنقطع النظير هو من يأتيك بالمعنى الحسن في لفظ لا اثر فيهِ للجزالة والفصاحة و بلغ ببعضهم الغلوّ في مذهبهم الى ان يقولوا ان الشعر المتين الرصين المحكم القوافي لهو شعرٌ مستهجن وان كان بليغ المعنى لطيف الاغراض

لعمري ان الحلية المصوغة من الذهب الابريز المرصعة باثمن اللآلئ لا يستحسنها ذو الذوق السليم الاّ اذا كان صوغها محكماً ولا يشفع فيها جودة ذهبها ونفاسة لآلئها اذا لم يكن صائغها ماهراً متقناً . ومهما تكن الفتاة بارعة الشكل رائعة المحاسن هيفاء القوام وليست ثوباً خلقاً مرقعاً فان لبسها هذا الثوب ماحٍ آية جمالها مشوّهٌ محاسنها فتنبو عنها عيون الفتيان ولا تصبو قلوبهم اليها

ومن مبتكرات الفريق (العصري) ضروبٌ من النظم يقسمون فيها القطعة الواحدة الى عدة اوزان كل وزن لهُ رويٌّ خاصٌّ تشبهاً بشعراء الفرنجة وهذه الطريقة تذهب بطلاوة الشعر الجيد السبك فكيف اذا كان رديئهُ وايُّ صادق الحس سليم الذوق تأخذهُ هزّةُ طرب اذا سمع شعراً هذا تفعيلهُ مستفعلن فاعلاتن مفاعيلن

او فعلن فعلن فعلن فعلن فعلن فعلن فعلن فعلن

فع فع فع فع

الم يكن لهم وقد ارادوا التفنن غنى بالنظم على طريقة الموشحات الاندلسية عن هذه الاوزان المضحكة

وهناك فريق جاء يدعو الشعراء الى اهمال الوزن والروي وسمى طريقتهُ هذه (الشعر المنثور) فكان ذلك احدى الضحكات . ولست ادري ولا العجم يدري كيف يمكن ان يكون النثر شعراً ما دام الشعر في الحقيقة هو الكلام الموزون المقفى فاذا فقد هذا الشرط بطل ان يكون شعراً

واذا كان اصحاب الشعر المنثور لا يتقيدون بوزن ولا تقفية ولا يبالون الاَّ المعنى الشعري وما دام كل شيء في الكون يكاد يكون ذا معنى شعري فمن الواجب ان يعدوا صداح الطائر وسواء الهر من باب الغزل والتشبيب وصهيل الجواد وصئ الفيل من باب الفخر وزئير الاسد من باب الحماسة وأطيط الجمل وخوار الثور وازيز القدر من باب الشكوى والعتاب وهزيم الرعد من باب الوعيد ودوي النحل وخرير الماء من باب الحكم وغاب الغراب من باب الرثاء وضحك القرد ونقيق الضفدع من باب الهجو الى غير ذلك

ولست بمبالغ اذا قلت ان (شعر) هذه المذكورات يكاد يكون ابلغ من شعر اولئك العصريين وافصح لانها انما نطقت بلغاتها الطبيعية التي لم يتشور قواعدها خلل ولا فشا فيها لغو ولا لحن ولا فسدت اساليبها وتعابيرها

ان لفئة من العصريين ذكاء فطريا لو اقترن باحكام اللغة العربية والتضلع من آدابها لخدمت هذه الفئة لغتها وقومها اجلَّ خدمة ولكنها بدلاً من ذلك نراها عاملة على تشويه محاسن اللغة وهدم اركانها وهذا مما يجد لهُ العربيُّ الصميم مسًّا اليمًا ولكل شيء آفة من جنسهِ

واذا انعمنا النظر في الاسباب التي حملت هؤلاء على ان يولوا لغتهم صفحة اعراضهم لم نجد لذلك سبباً الاَّ المدارس الاجنبية فان هذه المدارس تخرج الطلبة متبحرين في لغاتها تكلماً وكتابة جاهلين اصول لغتهم واساليبها واسرارها جهلاً فاضحاً منطوين لها على المقت والازدراء. وقد عرفت نفراً من هؤلاء لو استكتبتهُ صفحات في الانكليزية او الفرنسية لنزل على طلبك من غير تردد ولا إبطاء ولكن لو استكتبتهُ سطراً في العربية الفصحى لعبس وتولى ولم يستطع الى ذلك سبيلاً

واذا وجدت افراداً متضلعين من العربية غيُوراً عليها وهم من خريجي تلك المدارس فانما الفضل في ذلك لانفسهم لانهم انفوا من معرَّة الجهل بلغتهم فكبُّوا على كتب اللغة والادب يستجلون الغوامض ويستقرون الدقائق ويعانون الانشاء حتى ادركوا وطرهم واصبحوا بين ادباء العربية من النابهين

وما كنا لنكر على المدارس الاجنبية حسناتها في تثقيف العقول وتلقين العلوم والفنون بيد ان هذه الحسنات لا تعدُّ بازاء تلك السيئة شيئاً مذكوراً وأية سيئة اعظم من تنشئة الطالب على مقت لغتهِ وازدرائها والجهل بها وهي عنوان قومتهِ ولسان آبائهِ واجدادهِ

امين ناصر الدين
صاحب جريدة الصفاء

كفرمتى — الشوف — لبنان